سعيـــــــــد

يسرى الأيوبي

سمع الحارس الليلي صراخ طفل مذعور بعد منتصف الليل، فهرع الى مصدر الصوت فإذا به ينبعث من كاراج مقفل، وتملكه العجب فراح يهتف بالطفل أن لايراع، ويهدئه بمعسول الكلام.

– "اقترب.. اقترب يا بني من الباب.. لاتخف سأفتحه لك.. ولكن المفتاح ليس معي، فانتظر قليلا.. لاتخف.. من أنت وما اسمك؟"

وكفّ الصبي عن الصراخ وسمعت حركة انكماشه وراء الباب والتصاقه به، وكان لايزال يجهش مرتعش الصوت لم يزايله ذعره.. وأسقط في يد الحارس.. انه لايعرف منزل صاحب الكاراج فما العمل؟ وهذا الطفل المروّع، أيبقى هكذا حتى مطلع الصباح؟

– "مااسمك يابني؟"

– "اسمي سعيد.."

– "وما اسم أبيك؟"

– "أبي! ان أبي لايحبني.. كان يضربني كثيرا ."

– "ولكن مااسم أبيك؟"

– "لاأعرف.. افتح لي الباب.. اني خائف.."وعاد الصبي الى البكاء والنشيج.. وسال قلب الحارس رحمة له فهتف به:

– "قلت لك لاتخف.. يجب أن تكون طفلا شجاعا بطلا.. من الذي أتى بك الى هنا؟

– "الشرطي الذي يضع نظارات سوداء على عينيه.. افتح لي.."

– "من أين أتى بك؟ أين كنت؟

– "في درعا عند أمي."

– "درعا! ولماذا جاء بك الشرطي من درعا الى دمشق؟ أهو قريبك؟"

– "كلاّ ان زوج أمي ضربني وصاح بي قائلا أنه لايريد أن يرى وجهي في البيت.. وأنه يكسر رأسي اذا عدت مرة أخرى لأرى أمي.. ان زوج أمي شرطي أيضا.. وهو طويل جدا ويده ضخمة.. جرّني وأنا أبكي الى القطار.. اني أحب أمي.. فلماذا لايدعوني أراها؟"

– "نعم.. نعم.. أتمم أيها الطفل المسكين.. وماذا بعد؟"

– "بعد ماذا؟"

– "بعد أن جرّك زوج أمك الى القطار.."

– "قال زوج أمي للشرطي الذي يضع نظارات سوداء على عينيه "أوصله الى كاراج... نسيت اسم صاحب الكاراج"

– "لابأس أكمل.."

– "التفت الي وقال "أتعرف البيت ان وصلت الى بانياس؟" فهززت رأسي وأنا أبكي.. لماذا لايتركوني أعيش عند أمي؟"

– "بيت من أيها الطفل البائس؟

– "بيت جدي"

– وما اسم جدك؟"

– "اسمه جدّو"

وضحك الحارس ضحكة قصيرة وقال:

– "وكيف تركت هنا يا سعيد؟"

فأجاب:

– "لم يكن صاحب الكاراج موجودا، فانتظرت في احدى السيارات وغفوت، ولم أصح حتى الآن.. افتح.. ألا تفتح لي الباب؟"

وخشي الحارس أن يعود الطفل الى جزعه فقال:

– "اسمع يا سعيد.. دعنا نتسلّى قليلا ريثما يأتي صاحب الكاراج.. هل تحفظ أغنية؟"

– "نعم عاليادي اليادي.."

– "اذن تعال نغنيها معا.. ابدأ.. يالله! عاليادي اليادي اليادي يابو العبيديا."

وراح الحارس بصوته الأجش والطفل بصوته الناعم الوجل يؤلفان كورس ناشزا بعد منتصف الليل.. ويضحكان معا حتى أخذ التعب من الطفل كل مأخذ فارتفع صوت الحارس وتلاشى صوت الطفل.

– "سعيد.. سعيد.. هل نمت؟"

ولم يجبه أحد.. استغرق الصبي في نوم عميق في كومة راعشة عند الباب.

* * *

كان جميل شابا وسيما أشقر في الثامنة والعشرين من عمره يعمل سائقا مأجورا في احدى الشركات، ومع ذلك تزوج ثلاث مرّات.. وكانت أم سعيد الأولى وهي شابة في مقتبل العمر لايزيد سنها على الثالثة والعشرين، أضنتها تصرفات رجلها المزواج وحياة الضرائر فآثرت الطلاق مبرئة زوجها من كل حقوقها.

وعادت الى منزل والديها كئيبة محزونة لتضيف الى عوزهما عوزا بإعالتها وإعالة طفلها الذي عزّ عليها أن تتركه عند زوجتي أبيه.. انها لاتحسن الاّ أعمال البيت والاّ تضفير الحصر تعمل بها طول النهار وتتبلغ بما ينالها منها من ثمن زهيد لايكاد يكفي لستر جسدها وجسد صغيرها.. وكلما طالبت والده بنفقته أجابها بأنه غير مستعد لينفق عليه، ولها ان شاءت أن تبعث به اليه فيعوله مع إخوته.. فتصمت على ألم يحز.. أترسله ليضرب ويهان ويجوع ويظمأ هناك؟.. وكلماحدّثها أهلها بشأنه، وبأنه عبء يعجز كاهلهم، بكت واستغاثت بشهامتهم، وتعلق بها الطفل الأشقر الوسيم النجيب بشغف ولهفة يقطعان الأكباد.

وجاءها يوما شرطي يطلب يدها.. وبدا عليه أنه شاب ساذج عطوف يحب سعيدا ويعطف عليه فهو يحمل اليه الهدايا الصغيرة في كل زورة ويقبّله ويدلله..فاطمأن بال الأم وقبلت به زوجا.. وما كاد يعلم أنها ستأخذه معها الى بيت الزوجية الجديد حتى ثار وأرعد وقد انتفخت أوداجه:

– "لست مجبرا على أن أعول أبناء الغرباء من راتب يكفينا من العيش بلغة.. ليبق في بيت جده أو يذهب الى والده فهو أحق الجميع به.

ولم تفد دموع الطفل في هذه المرة ولا عويله أو توسلاته.. وحيل بينه وبين أمه، فنام للمرة الأولى في فراشه وحيدا، وأفاق في الليل ينادي أمه ولا من مجيب.

وتلوّى ألما.. أين اليد الرفيقة تشرب دموعه وتسقيه الحنان وتطعمه كبدها.. وأحسّ قسوة الوحدة إحساس طفل يرى في أمه الدنيا وكل نعيمها.. الدنيا التي خذلته وتركته لرياح الهموم تعصف به.. ورغم أن جده عوّضه بعض الحنان الاّ أن هذا لم يرو قلبه الظميء.

وراح يتردد على أمه وجلا كلما سنحت له الفرصة.. كان يخشى ذلك الرجل الطويل الفظ ذا اليد الضخمة الذي يزجره، وتقوم بينه وبين زوجته المشادّة بسببه كل مرة حتى بلغت ثورته يوما أن ضربه ضربا مبرحا، فينهل في غفلة من عيني غريمه ما يهدهد صداه وقد استبد الهوى بالعاشق الصغير المحروم فتراه يقبلها بشوق محموم في كل موضع تقع عليه شفتاه، ويلقي بنفسه على صدرها ويشدّ على عنقها الوثاق وهو يهتف من قلب وجيع: "لم تركتني ياماما، لم تركتني؟"

فتنحيه عنها والدموع تغسل وجهها، وتلحّ عليه في أن يعجل بالذهاب قبل أن يراه الزوج الغضوب.

وكأنما الغيرة قد تملكت الزوج من هذا المزاحم اللجوج الذي يشبه أباه، فبدأ يفسر تعلق الأم بالصبي كأنما هو تعبير عن هوى لايزال متأججا في قلب الأم للرجل الذي تخلى عنها، فأراد أن يقضي على صلة الأمومة قضاء مبرما، وطلب نقله الى درعا ليقطع روابط الرحم بين الصغير وأمه.

وسمع سعيد همسات بأن أمه ستسافر فأجفل منه القلب وشحب الوجه وسأل زوجة خاله بلهفة وشفتاه ترتجفان:

– "الى أين ستذهب أمي؟ ألن أستطيع أن أراها بعد اليوم؟"

فربّتت على كتفه متظاهرة بالعطف: "ستذهب الى درعا ولن تستطيع أن تراها.. فالمكان بعيد.. يوم بالسيارة ويوم بالقطار".

ووقف الطفل برهة تمثالا للعذاب الصاهر وتخاذلت أطرافه وراح يرتجف وقد ازداد شحوبه فما هو بجسم، ان هو الاّ نبض وأعصاب راعشة.

وانزوى في ركن وقد طاش صوابه. "ستسافر .. ستسافر ولن أراها".

ولم يقو على الإحتمال فأجهش ببكاء يذيب الأفئدة الصخرة، ولم يلبث أن تماسك وقد أوثبته رغبة قاهرة في أن يذهب اليها ويستعطفها أن لاتحرمه رؤيتها أو أنه سيقذف بنفسه الى البحر.. ولكنه تذكر أنه ميعاد زوجها في العودة فلم يجرؤ على أن يفعل.. وانتظر حتى اليوم التالي والقلق يكاد يضنيه، وبدا ذابل الوجه منكسر العينين خافق الصدر حين أطارته اللهفة الى صدرها، وراح يمرّغ بشفتيه المنفعلتين وجهها وصدرها وذراعيها وساقيها وقد انتشى بالعطر الخفيف الذي ينبعث منها.. وأحس برغبة مجرمة في أن يقتل كل من يريد أن يقطفه عن فرعها.. آه لو كان رجلا! آه لو كان له الطول الفارع واليد الضخمة! وهزّه صوتها الناعم المفعم حنانا وهي تمسح على شعره الذهبي:

– "مابك ياحبيبي؟ أنت لست فرحا كعادتك اليوم.. أهناك ما يؤلمك؟"

ورفع اليها عينين تستشهد فيهما الروح بين مخالب أسى جائر:

– "أحقا ستسافرين ياأمي الى مكان بعيد، ولن أراك بعد اليوم؟"

– "تشجع يا سعيد.. ليس المكان بعيدا جدا كما تتوهّم.. سيأتي بك خالك الينا من حين لآخر وسأزورك أنا الأخرى، ولن يطول غيابنا فسأعود قريبا.. لاتبك، لاتبك يا سعيد ان كنت تحبني حقا ولا تريد أن تنغص علي عيشي.."

– "ليسافر زوجك وحده.. أما أنت فابقي هنا.. لاأستطيع أن أحتمل غيابك.. لاأستطيع.. ليبحث عن غيرك.. عودي الي، عودي! سأموت لو تركتني.."

– "لاياسعيد.. ماينبغي لك أن تقول هذا.. انه زوجي ولا أستطيع أن أعصيه.. فانه يضربني ان فعلت.."

– "لم، لم تزوجته ياماما ولم تتزوجيني؟"

وضحكت الأم وهي تربّت على خده:

– "أنت ابني ياسعيد .. والأم لاتتزوج ابنها.. وأنت صغير فلا تستطيع أن تعولني.. أريد أن أعيش.. أريد من يطعمني والاّ مت جوعا.. أكنت تفضل أن أموت وأذهب للسماء فلا تراني طول حياتك؟ فكر يا سعيد.. انك الآن تستطيع أن تأتي الي من وقت لآخر.. أليس هذا أفضل من أن لاتراني أبدا؟ عدني أن تكون شجاعا، فلا تسمح لعمك أن يضحك منك أو يشمت بك.."

وأهوى سعيد برأسه على كتف أمه، ثم رفع عينيه المخضلتين:

– "أتتركينه عندما أكبر وأكسب مالا كثيرا وتعودين الي؟"

– "طبعا، طبعا يا سعيد.. وهل لي من أمل في الحياة الاّ أن أكون قربك؟"

وازدهى لونه وتوثب فرحا:

– "سأشتري لك حلوى ياماما ولعبا وأثوابا جميلة وبيتا وسيارة وطيارة وباخرة ومسدسا.."

وسألته وقد تغير لونها بعد إشراق وتملكتها الدهشة:

– "ولم المسدس ياحبيبي؟"

وبسط يديه ببراءة الطفولة الغرّة وقال:

– "لنقتل به عمي ياماما!"

– "كفانا الله الشرّ يابني.. إياك أن تفكر بهذه الأفكار السوداء! إن عمك رجل طيب وهو يمون عليك مثل ولده.. فقط هو عصبي بعض الأحيان.."

لم ينم سعيد إلا غرارا وأفاق مفجرا تتناهبه الأفكار وقد أخذ البثّ بأنفاسه.. ستأتي أمه الآن لوداعه.. لا لن يبكي.. سيبرهن أنه شجاع وسيخفي جواه.. وقام فغسل وجهه وأطرافه، وسرّح شعره وارتدى أحسن ثيابه، ووقف قرب النافذة ينتظرها قبل أن يفيق من في البيت..

وما لبثت أن أقبلت وزوجها يحمل لها الحقيبة فأحس الصبي باللوعة تسحقه ووهن عن كتم عبراته الصامتة المتلاحقة وهي تضمه ضمة الوداع وتقبله، فجذبها زوجها:

– "هيا بنا لايتشبث بك الصبي فقد حان الوقت.."

وكفكف الطفل دموعه وقال بإصرار:

– "سأذهب معك حتى موقف السيارة.."

فعطف عليه الرجل حنقا:

– "بل تبقى هنا.. أتريد أن تصدّع رأسي بمشاكلك منذ باكر هذا الصباح؟

فغمغم الطفل بانكسار:

– "لن أبكي ولن أتعلق بها.."

وأبّ الرجل يريد الخروج وهو يقول بصرامة:

– "قلت لك لا!"

وهمست الأم لطفلها وهي تنفحه ليرة سورية:

– "سأحضر لك معي سكاكر وشوكولاتة عندما نعود.. لن يطول غيابنا.."

وسمع بوق سيارة في الخارج:

– "تستطيع أن تراني من النافذة.. هذه هي السيارة التي ستقلنا.. لاتبتئس ياحبيبي.. دعني أرى الابتسامة على ثغرك.. نعم هكذا أيها الشجاع البطل!"

ووقف سعيد يرقب السيارة بطرف دمع وهي تتهيأ للسفر وتحمل معها بعيدا أمه الغالية.. وكم من مرة وقف وقفته تلك يذري العبرات إذ تعاوده ذكرى فراقها كلما سمع بوق السيارة الزرقاء وأزيزها وهديرها في غدوها ورواحها.. ان أذنه الحساسة لا تخطئها فلها روح تميزها.. شفاهها تتمتم وعيونها تشع وقلبها يخفق.. أليست هي التي أقلت أمه الغالية؟"

وبرّح بالصغير عدواء الشوق، وأيأسه المطال فلا جوانحه تقر ولا مهاده يلين وأنّ من فؤاد رهيد:

– "الى متى يسوّفون؟"

وبان في وجهه الصغير إصرار، وفي شفتيه عزم وانسلّ في صبيحة يوم الى السيارة والسائق ومعاونه مشغولان بحزم الحقائب على سطحها واختبأ تحت المقعد في مؤخرة السيارة تستره صفيحة زيت..

وتقاطر الناس الى السيارة وأخذوا أماكنهم.. وما لبث أن اكتظ أسفل المقعد الأخير بالسلال والأكياس والدجاج المغلّل بدون أن يفطن أحد الى وجوده، وحشر في مكان ضيق حتى كاد ينبهر منه النفس، فاحتمل متوجسا أن يفتضح أمره،

وتحرّكت السيارة فاطمأن وبقي على حاله حتى رأد الضحى، واهتزازها يقيمه ويقعده، فدار منه الرأس وخدرت العين ونام قريرا يحلم بلقاء أمه ولا يحس مساس الظمأ والجوع.

وانتبه على ضوضاء ويد تنتزعه من مكمنه، وهتف المعاون:

– "انه سعيد.. كيف اختفى هذا الشيطان الصغير بدون أن ندري به؟"

ورأى سعيد الركاب يحدقون به ويتهامسون، فارتجّ عليه ونحب ولجّ في الاستعبار.

– "أريد أن أرى أمي.. خذوني الى أمي.. انني مشتاق الى أمي.."

وأشفق عليه الركاب والسائق الذي كان يعلم بطرف من قصته فمسح على رأسه برقّة:

– "ولكن أمك في درعا.. ولا يمكننا أن نبلغ هذا المكان.."

والتفت الى معاونه وقال:

– "سنعيده إذ نلتقي بأية سيارة راجعة.. لاشك أن أهله في قلق عليه.."

فصاح الصغير كمن مسّته نار وهو يرى أن الومضة ستنطفئ والحلم يتبدّد..

– "لا، لا.. دعوني أرى أمي.. لاتعودوا بي قبل أن أرى أمي.."

وحنّت عليه امرأة كانت وجهتها درعا، وهي قريبة السائق فتبرّعت أن تجمع شمل الصبي بأمه.

وهكذا وجد نفسه بعد غياب ما يقرب من عام مرتميا على صدرها مرة أخرى كحمام زاجل عاد الى وطنه الحبيب، ولم يستطع أن يحتمل كل تلك السعادة فأغمي عليه بين ذراعيها..

* * *